الشرق والغرب

اشتد الحرّ في اواخر اغسطس في القطر المصري واطأت النفوس على القطن مصدر ثروة القطر بعد عناء لا يدرك مقداره الاّ من رأى حشرات صغيرة تصادره وتأكل ماله امام عينيه ولا قبل له بها ولا حيلة في يده لتتغلب عليها فدعاني داعي الراحة الى قضاء بضعة اسابيع في جبال سويسرا . وقد عقدت النية على ان لا اكتب في هذه الرحلة حرفاً ولكن غلبني سكون البحر وشاقتني الراحة فيه الى القلم فلم ارَ لي بدّاً من كتابة السطور التالية

ودعنا القاهرة صباح الرابع من سبتمبر انا وابني قاصدين بورت سعيد وركبنا منها الباخرة الانكليزية رفيتو وهي من اكبر البواخر التي تمخر البحر المتوسط ان لم تكن اكبرها . محمولها اثنا عشر الف طن وتتسع وفيها من معدات الراحة والرفاهة ما لا تراه الاّ في بواخر الشرق الانكليزية . وكان ركابها قلالاً واكثرهم من استراليا وبينهم حاكمها السابق لورد ددلي . ولم يكن معنا من اهالي القطر المصري سوى شابين من التلامذة الذين يتلقون الدروس العالية في انكلترا وهما محمود افندي غزالي نجل المرحوم عثمان بك غزالي من تلامذة مدرسة الاقتصاد والادارة في لندن واحمد افندي ابو حسين نجل محمد بك ابي حسين من تلامذة كلية الملك في جامعة لندن وكلاهما من الذين تفتخر بهم الشبيبة المصرية . وكان معنا من نزلاء مصر الدكتور فرنسيس متين طبيب الاسنان والباقون من الانكليز والاميركيين ما عدا رجلاً من اهالي الارجنتين معهُ زوجتهُ وابنتهُ وهو مدير المكتبة العمومية في بلادهِ ورجلاً هندياً من المحامين

قضينا اكثر ايام السفر في الحديث عن استراليا والهند واميركا والقطر المصري نسأل ونُسأل ونوضح ونستوضح . والباحث يستفيد من كل احد ومن كل شيء . وقد ظهر من الحديث مع اولئك الرفاق ان العالم كلهُ ميدان سباق والسبق فيهِ الآن للامم التي يجمعها المذهب الانجيلي من الانكليز والالمان وبقية امم الشمال . ولعل اعظم اعاظم واحراها بالاعجاب تعميرهم استراليا تلك الجزيرة بل القارة التي مرت عليها الوف الاعوام وهي وطن لاقوام من احط الناس خلقاً وخُلقاً فلم يمضِ على ابناء اوربا خمسون عاماً فيها حتى عمّروها وانشأوا فيها من المدن ما يضاهي اكبر العواصم الاوربية في ضخامة المباني وانتظام الشوارع وهم يملأون اسواق اوربا الآن باللحوم والحبوب والاثمار . وكانت السفينة التي نحن فيها مشحونة بلحم

استراليا وفاكهتها في غرف مبردة وقد افرغت جانباً كبيراً من اللحم في نابلي . ولم يكن يخطر ببالي ان بلاداً زراعية كايطاليا تحتاج الى لحم استراليا او يكون ثمن اللحم الوارد اليها مع ما يضاف اليهِ من اجرة الشحن والتبريد ارخص من ثمن اللحم الذي فيها

وكانت استراليا ولا تزال عرضة للقيظ يتلفها في بعض السنين فيهلك ما فيها من الزرع والضرع لكن سكانها الحاليين بحثوا عن المياه في طبقات الارض السفلى فوجدوهُ وحفروا الآبار الارتوازية فامنوا شر احتباس المطر . وخزنوا العلف للمواشي حتى اذا احتبس مطرهم ولم يكفِ ماء الآبار الاَّ للشرب وجدت المواشي علفاً يكفيها . واصيبت البلاد بوباء الارانب فانها كثرت فيها حتى افسدت الزرع واتلفت الحقول فضاقوا بها ذرعاً في اول الامر ثم لجأوا الى صيدها والمتاجرة بجلودها يرسلونها الى اوربا للفراء فكان لهم من ذلك مورد رزق واسع حتى صاروا يشكون من قلة عمّال الزراعة والصناعة لكثرة المنقطعين منهم لصيد الارانب . ووجدوا ان بعض الاراضي القاحلة لا تنبت زرعاً لكثرة النصفات فيها فاستخدموهُ مهاداً لغيرها من الاراضي القليلة الخصب فزاد خصبها . والبلاد واسعة جداً لو زاد سكانها مئة ضعف لبقي ميدان الارتزاق واسعاً فيها فلا ادري لماذا تضنُّ على الشرقيين بالمهاجرة اليها اذا كانوا مستعدين للعمران الاوربي مثل الاوربيين

وقد رأيت ان استقصي رأي المحامي الهندي في بلادهِ وما يقدرهُ ويتمناهُ لها فقال لي ان البلاد سائرة في سبيل العمران سيراً حثيثاً وانها اذا تُركت وشأنها الآن اصابها من الانقسام والتجاني والحروب الاهلية ما يعود بها القهقرى . وان اليابانيين اعلى من الهنود همة واشد منهم التحاماً فلا ينتظر ان يبلغ الهنود مبلغهم اذا استقلوا مثلهم

هذه زبدة كلامهِ وهي اعتراف لم اكن انتظرهُ منهُ ولم يكن في كلامهِ تمحُّل بل كان يوردهُ بسرعة وايجاز كحقائق مقررة لا جدال فيها

ومرَّت الباخرة بنا امام قبرص وكريت فلم نرَ من عمارتهما شيئاً يذكر ولعل العمران فيهما يسير الآن سير السلحفاة بعد ان كانتا مسكنين عظيمين . بل يظن بعض العلماء ان عمران كريت معاصر لعمران مصر ان لم يكن سابقاً لهُ كما يظهر من الآثار التي كُشفت فيها حديثاً وقس على ذلك عمران قبرص القديم فلماذا ذهب ذلك المجد الباذخ مع مجد الشرق ولم يبقَ منهُ الاَّ آثارهُ في الانقاض والمدافن . من لي بكشف القناع عن هذا السر الغامض . من لي بتحريك اليراع حتى يصف ما حل بشرقنا من الدواهي السود . كيف امتطى المشارقة غارب المجد وابقوا من المآثر والآثار ما عجزت عن محوهِ نوائب الدهر ثم تولَّى الضعف

ابناءهم حتى عجزوا عن حفظ آثارهم . مباني مصر وبابل واشور أُنشئت لما كان سكان اوربا يأوون الى كهوف الارض وعرازيل الجبرات فاذا انقلب ميزان الزمان فرفع هؤلاء وخفض اولئك

ربَّة الشعر طال هجري وصبري ... وعراني المشيب والشيب يزري
الف عام لديك عام ولكن ... حامل الهجر يومهُ مثل دهرِ
قد دعوتِ هوميروسًا واستجدتِ ... الشعر منهُ منظَّمًا نظم درِّ
ورمقتِ فرجيل فالروم سكرى ... من معانٍ فاقت سلافة خمر
وامرؤ القيس يوم عقر المطايا ... للعذاري رأى رحيقك يجري
واحتفلت باحمد المتنبي ... وهو أدنى بشعره للعرّي
وبثثتِ سِفي شكسبير ذكاءً ... يقترض الشعر بين نظم ونثر
اتركت ولو ثمالة كأس ... لنعى من القريحة صفر
ام هجرت ربعًا لهُ النيل خدنٌ ... فيهِ بنتور كان شاعر مصر

***

ربَّة الشعر طال هجري فعودي ... كل ماضٍ يعود حكم الوجودِ
من شموس وانجم مشرقات ... والدراري المتظمات العقودِ
فلقد كنتِ قبل أنْ نظم الناسِ قريضًا مقيَّدًا بقيود
تلهمينَ الرعاة شعراً فيأتي ... محكَمَ الوزن خالي التعقيد
وشهدت حروب مصر واشور ... وما قبل صالح وثمود
فدعوت بنتور يروي حديث الحرب شعراً على صخور الصعيد
ورأيت فرعون يتبع موسى ... يوم غاصت في اليم صيد الجنود
فمست لسان مريم حتى ... نطقت بين قومها بنشيد
هل تضنين شأن كل الغواني ... او تجودين لي بعوْد حميد

فحركي فلمي حتى يصف اسباب هذا الخراب لعلَّ ما مضى يكون عبرةً لنا ولابنائنا من بعدنا

ليكِ فاسمع حديثنا كلهُ عجبُ ... قامت بأبيدهِ الآثارُ والكتبُ
شمسُ الحضارة كانت فوق مصركمُ ... تحيي وتمي وتوحي ليس تحتجبُ
والغرب يخبط في الديجور معتسفًا ... لا شمس في جوّهِ تبدو ولا شهبُ
فآل فرعون لبّى النيل امرهمُ ... وزيهم عنبر يجري بهِ الغربُ

ملوكهم عدلوا في الناس او ظلموا ... سادوا وشادوا فلا هدم ولا خرب
وعاهدوا حدثان الدهر وارتقبوا ... مجرى الحوادث فانقادت كما ارتقبوا
اهرامهم راسخات لا يلمُّ بها ... ريب ولو كرّت الايام والحقب

∴

وآلُ اشور اجروا من قراتهم ... جداول التبر فاخضلّت بها الترب
وشيدوا مدناً عصماء لو نزلت ... بها الكواكب لاحتفّت بها القبب
ابراجهم ونجوم الليل في حبُكٍ ... اسوارهم من بروج الشمس تقترب
كم فيلق عبأوا كم دولة محقوا ... فالشام دانت لهم والروم والعرب

∴

وآل صيداء مع صور ودولتهم ... سلطانة البحر ان قالوا او انتسبوا
الانكليز على منوالهم نسجوا ... والروم قبلهم في لحقهم رغبوا
خاضت سفائنهم قلب المحيط وفي ... اقصى البوادي نرى روادهم ضربوا
سلْ قرطجنّةً أو سل قادساً وكذا ... ارض المثاليل حيث العاج والذهب
مستعمرات لهم في كل ناحية ... باجودها كرمة يا طيبهُ عنب[1]

∴

كرّت قرون وشمس الشرق مشرقة ... والغرب في ظلمات الجهل يضطرب
لكنما النجمُ يأتي بعدهُ بطرٌ ... وآفة المفلحين اللهو واللعبُ
فنام اولاد من جدّوا ومن وجدوا ... وقام اولاد اهل الغرب واطّلبوا
وكان من امرهم ان الجبوا بطلاً ... دانت لهُ السمرُ والهندية القُضُبُ
خرّيجُ مدرسةٍ تلمذ فلسفة ... والعلم مع طمع يغري ويجتلب
قضى على الفرس ارضى مصر ثم بنى ... مدينة لاسمهِ تعزى وتنتسبُ
اسكندر البطل المغوار والبطر — القاضي على نفسهِ اذ ساءهُ الغضب
كأس سقاها وكأس اوردتهُ ردى ... والملك لله لا يعطاهُ منتصب
سمٌ تسرى في عروق الشرق ما نشئت ... آثارهُ فيهِ تذكيهِ فيلتهبُ

∴

في فترة الدهر بينا الشرق محتضر ... والغرب مضطرب والعلم محتسب

(١) كناية عن فينيقية ومستعمراتها

قامت دمشق وبغداد وقاهرة فادرك الناس ما يبغون او قربوا
لكنهم جعلوا الآثار رائدهم بدر محاق او التقريب والحبب
يوماً مدارسهم بالعلم حافلة وآخر فتنة تغشى بها الكرب
بنو امية فيهم قال سيدهم لم يتركوا هامة الا بها ضربوا
فاقتص منهم بنو العباس ثم جزوا في اثرهم شطباً من بعد ما نكبوا[1]
بنو امية نال السيف هامتهم والهاشميون قتلاً جلهم ذهبوا
والفاطميون يكفي فعل حاكمهم تالله ما يفعل الاجداد والنسب

***

والغرب قامت لهُ في المجد قائمة فساد من ساكنيه البحر والغرب
من آل صقلب والافرنج كلهم والقوط والمنُ والكسون والعصب
تداولوا الملك لم تأخذهم سنة وعززوا العلم لم يمنعهم نصبُ
مرّت بهم أعصر اخت بكلكلها ويجورها مطبق انوارهُ سحب
كانهم مزنوه مشحنين بها بصارم لا سبا فيهِ ولا شغب
يصارم العلم نور العقل فاغتبطت اقوامهم واستمرّ العلم والادب

***

يا شمس هل زورة منك فتنعشنا في الشرق قد بُعثت اباؤك النجب
عودي الينا والاّ فالحياة ضنىً والعيش موت وتطلاب العلى عطب

ولقد كان غرضنا النزول في مدينة نابلي والمرور في ايطاليا لزيارة مدنها ومشاهدة معالمها ولا سيما رومية ام المدائن ولكن عدنا حينئذٍ ان الكوليرا ضاربة اطنابها في تلك البلاد وانهُ يخشى من ضرب الحجر الصحي على المارين فيها واذا نزل احد الى البر لم يسمح لهُ بالعودة الى السفينة . فاسقط في يدي وحرمت مشاهدة آثار بياي وما قد لا تتاح لي مشاهدتهُ في فرصة اخرى

ومنظر نابلي من البحر جميل يشبه منظر بيروت من بعض الوجوه وهي اكثر امتداداً من بيروت واقل عرضاً وبركان يزوف متربّع امامها يهددها بحممهِ ولكنهُ كان خامداً لا ينفث ناراً ولا دخاناً . والمرفأ كثير السفن البخارية وفيهِ ما لم اكن انتظرهُ في مراقيه اور با ولم ارهُ

(١) اي نكبوا البرامكة على ما هو معلوم

فيها قبلاً قوارب صغيرة فيها العازفون يعزفون ويغنون والراقصات يثنين بما لا مزيد عليه من التهتك ابتغاء دريهمات يرميها اليهن الركاب . وحول القوارب اولاد عراة يغوصون في البحر لاجل قطعة من النقود مهما كانت . ومرت الساعات وهؤلاء الماكين يستعطون على هذه الصورة الزرية مما لم ار له مثيلاً من قبل لا في مدن اوربا ولا في غيرها

ونحو المساء قامت السفينة بنا قاصدة مرسيليا . وكان البحر رهواً كل مدة السفر وقبطان السفينة على جانب عظيم من الظرف وهو موسيقي ماهر كثير الفكاهة وبين الركاب فتيات يحسن الغناء والضرب على البيانو فرت ايام السفر بين احاديث مفيدة وسمر وطرب ومأكل ومشرب . وكأن معد الانكليز مسبوكة من الفولاذ فيأكلون سبع مرات في اليوم ولا يتخمون فلا عجب اذا ايفت معد طلاب العلم منهم اذا اطالوا السفر بحراً كما ايفت معدة دارون فقضى عمره مصاباً بسوء الهضم

ومن اغرب ما في الباخرة ان خشب غرفها الكبرى من الجميز وهو رمادي اللون جميل التعريق له لمعان فضي ولم أكن اظن ان هذا الشجر يكبر الى حسبان تبنى منه السفن . ولا شبهة في انه من امتن انواع الخشب واكثرها احتمالاً للرطوبة وقد كان المصريون الاقدمون يصنعون منه توابيت موتاهم ولم تزل تلك التوابيت صليبة الى الآن مع ما كر عليها من القرون

وبلغنا مرسيليا صباح العاشر من سبتمبر واذا الحر فيها يزهق النفوس فركبنا اول قطار الى جنيفا والطريق بين المدينتين نزهة من النزه عند من تشوقهُ الصناعة وتدهشهُ الطبيعة . كروم الزيتون والعنب وحقول التوت والكستنا وغابات السرو والشربين . والاكام والهضاب والجبال الشاهقة مغطاة كلها بالاعجم والاشجار الا في مكسر الصخور . ونهر الرون يتمعج بينها كالافعوان بل كسيف يسل على نجاد اخضر والقرى على ضفتيه وفي سفوح الاكام كاللآلئ والبواقيت والناس يمشون في متنزهاتها رجالاً ونساء واولاداً بافخر ملابسهم ملابس الاحد . والمعامل رافعة مداخنها الى السحاب لكن آلاتها صامتة تشارك عمالها في الراحة والراحة لازمة للمجتهد

هؤلاء الفرنسويون اهل جد واجتهاد ومهارة واقتصاد بلادهم جنة اوربا وهم اغنى سكانها

بلغنا جنيفا في المساء ولم نكد نجد مكاناً في فنادقها لكثرة السياح والمصطافين لكننا ليلة قضيناها في اقرب فندق من المحطة وقمنا في الصباح ووجهتنا مدينة لوزان